الذى لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحَّداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وقد تكلم سبحانه لنا - أولاً - عن الآيات المحيطة بنا والتى بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولنا ، ثم يتكلم عن شىء فى ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه - سبحانه - يأتى لك بالدليل فى ذاتك وفى نفسك ؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ما حولك ، بل الدليل فى ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى يكفى أن تجعل من نفسك عَالَمًا ، هذا العالم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

«وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة» ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه - أيضاً - استقراء فى الوجود ، الذى نسميه التنازل للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم فى هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت فى الزمن الماضى وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا ما ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(سورة الذاريات)

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائى فى الزمن الماضى يدل على صدق القضية . وكذلك كل شىء متكاثر فى الوجود من نبات ومن حيوان . تجدها تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضى تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهى إلى أصل منه التكاثر إنّه يحتاج إلى اثنين :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ولماذاجاء الحق هنا بقوله : «من نفس واحدة » ولم يقل زوجين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا ـ كل الخلق ـ فيها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناه فى قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد ساح فى القارورة وصار فى كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها فى برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن فى كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة ، فإذا أخذنا البرميل ورميناه فى البحر فستنساب المادة الملونة ليصير فى كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن مادام آدم هو الأصل ، ومادمنا ناشئين من آدم ، ومادام الحق قد أخذ حواء من آدم الحى فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حى . وبذلك يردنا الحق سبحانه إلى أصل واحد ؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد والتعاطف .

ويقول سبحانه : « فمستقر ومستودع » والمستقر له معان متعددة

يشرحها الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه . وفى قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن ، وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب . ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

مستقر هنا إذن تعنى حاضراً ؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالمجلس بل أحضر إليه . وفى مسألة الرؤية التى شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِى وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ونعلم أن الجبل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن فـ «استقر» تأتى بمعنى حضر ، وتأتى مرة أخرى بمعنى ثبت .

والحق يقول :

﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأعراف)

وذلك بلاغ عن مدة وجودنا فى الدنيا ، وكذلك يقول الحق :

﴿ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الفرقان)

إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق :

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إذن فمستقر تأتى بمعنى حاضر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدَّة وزمن الحياة فى الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار . ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : «مستقر » فى الأصلاب ثم استودعنا الحق فى الأرحام . ومنهم من رأى أن «مستقر » مقصود به البقاء فى الدنيا ثم نستودع فى القبور .

ونقول : إن الاستقرار أساسه « قرار » حضور أو ثبات ؛ وكل شىء بحسبه ، وفيه استقرار يتلوه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو مايطمع فيه المؤمنون .

وهذا هو الاستقرار الذى ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول فى الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين فى الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق فى الأرحام ، وكنا مستقرين فى الدنيا ثم استودعنا . فى القبور . حتى نستقر فى الآخرة . إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعانى . والشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن ترد الودائع

ونلحظ أن هناك كلمة « مُسْتَقَرّ » وكلمة « مستودع » ، و« مستودع » هو شىء أوقع غيره عليه أن يودع . لكن « مُسْتَقَرّ » دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا «مُسْتَقَرّ » به .

ويقول الحق : «قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون » والتفصيل يعنى أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة ؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعانى مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل

تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً فى ألا يفقه، ولم يترك لأحد مجالاً فى ألا يتعلم ، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف ؛ فهناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنعام)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنعام)

و« الفقه » هو أن تفهم ، أى أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها ما يقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية .

وأراد الحق بالتفصيل الأول فى قوله : « لقوم يعلمون » الدعوة للنظر فى آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أى فى قوله سبحانه : « لقوم يفقهون » لفت للنظر والتدبر فى آيات داخلة فى ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى

﴿ ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

كان السياق يقتضى أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء « فأخرج ».

لكنه هنا قال : « فأخرجنا » ؛ لأن كل شيء لا يوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له. وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذى فعل ، لكنه احترم تعبك ، وهو يوضح لك : حين قال : « فأخرجنا » أى أنا وأسبابى التى منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذا نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء . وإن نظرت إلى ظاهرية التجمع والحركة فالأسباب التى باشرها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول : « فأخرجنا ».

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم فى بعض المواقف فيثبت للإنسان عملاً لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفى عنه عملاً آخر ليس له فيه دخل بأى صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة الواقعة)

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه - سبحانه - فهو الذى أنزل لنا الحديد الذى صنعنا منه المحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التى خلقها لنا ، وبالطاقة التى أعطانا إياها ، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه :

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الواقعة)

هنا - سبحانه - أتى باللام فى قوله تعالى : (لجعلناه) للتأكيد ؛ لأن الإنسان له فى هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهد ما زرعه بالريّ والكد

حتى نما وأثمر ، لكن قد تصيبه آفة تقضي عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلا أنها لاتضمن الانتفاع بثمرة الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولاتتأبى على الله ولاتخرج عليه ، إنها تؤدى مايريده منها الله ، وقد يعطلها سبحانه . أما في قوله تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لونشاء جعلناه أجاجا » ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكده باللام .

ويقول سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

إن كل شيء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لايُفتن الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستقبل الأشياء مع إمكان إعدامها . وإذا ما كان الإنسان هو الذى يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : « **نحن قدرنا بينكم الموت** » . أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يقضى عليها ويخمدها ويطفئها . إنه - جل شأنه - أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة «نحن جعلناها تذكرة» أي لابد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الأخروى « ومتاعا للمقوين » أي ونتركها - دون نقض لها وذلك لأمر آخر هو المنفعة في الدنيا للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

والشيء هو ما يُخْبَر عنه ؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك رخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعماراً للحجارة ، طال عمر حجر ما فصارا فحماً ، وطال عمر آخر فصار جرانيتاً ، وهكذا . وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطري يأخذها هكذا ، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتغلغل في الكون ويجد الآية سابحة معه وهو سابح معها .

ويتابع سبحانه : « فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً » وإذا قلت كلمة « خَضِر » فقد تعني اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن «خضر» فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن «أخضر» يخبر عن لون فقط ، واللون متعلقه العين ، لكن « خضر » يعطي اللون ، ويعطي الغضاضة ونعرفها «بالجس» . وحين تلمسه تجد النعومة .

إذن «خضر» فيها أشياء كثيرة ؛ «لون» متعلق العين ، «وغضاضة» نعرفها بالجس وفيها نعومة نعرفها باللمس . وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أي أن خضرته شديدة حتى إنها تضرب إلى السواد ؛ لذلك نسمع من يقول : «سواد العراق» أي الأرض الخصبة التي في العراق ، ويسمونها سواد العراق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾

(سورة الرحمن)

و «مدهامة» أي مثل دهمة الليل ؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل . ويتابع الحق «خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً» والحب هو

ماليس له نواة مثل حبة الشعير وحبة القمح وحبة العدس وحبة اللوبيا . و«متراكبا» تعنى أنه حب مرصوص متساند .

« ومن النخل من طلعها قنوان دانية» والنخل عند العرب له مكانة عالية لأنه يعطى لهم الغذاء الدائم فيذكرهم به «ومن النخل من طلعها قنوان دانية» .

و «الطلع» هو «أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو مانسميه فى الريف «الكوز الأخضر» وهو فى الذكر من النخل الذى يسمى «الفحل» ويوجد أيضاً فى الأنثى ، وأول مايبدو من ثمر النخل يسمى الطلع ، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنو أو العزق أو العرجون ، وهو الجزء الذى توجد فيه الشماريخ التى يتعلق بها البلح .

والطلع إذن هو الثمرة الأولى للنخلة قبل أن تنشق ويطلع منها القنوان وهو «السباطة» كما نسميها فى الريف .

«قنوان دانية» ويصفها الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخل أول ما يطلع تجده ينشق ويحمى نفسه بشوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحنى ويكاد ينزل على الأرض فيكون دانياً قريبا ، فإن كانت هناك «سباطة» شاذة تجد من يجنيها يُدخل يده بين الشوك ليصل إليها . وسبحانه يترك لنا فلتات لنعرف نعمة الله فى أنه جعلها تتدلى لأنها لو كانت كلها دانية . قد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها لتعرف أنه سبحانه قد دنّى لك الباقى وهذه نعمة من الله .

ويُطلق الطلع مرة على الأكمام و «الكِم» هو ما توجد فى قلبه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه :

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وأنت ترى البلح نازلاً من «الشماريخ» ، وكل شمروخ به عدد من

البلح، ثم ترى «الشمروخ» متصلاً بالأم ، وفى ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة فى ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب فى هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندما ننظر إلى ما تعلمناه فى حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحى ، إنّ شبكة المياه التى تعطينا الماء الذى نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحى التى تأخذ الزائد من المياه والفضلات . عندما تنظر إلى هذه الشبكة أو تلك تجد هندسة كل منها دقيقة ؛ لأن أى غفلة فى التصميم تسبب المتاعب . فحين تريد توصيل المياه إلى حارة ؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفى الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل للبيوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق هذه المسائل .

فإذا كانت هذه هى هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق ؟ أنت تجد العرق : وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا «سباطة» وفى كل «سباطة» هناك «الشماريخ» ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شيء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق : كن ، وصدق الله القائل :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

(سورة الأعلى)

« وهو الذى أنزل من السماء ماء » وكلمة «وهو الذى أنزل من السماء ماء» لم نكن نعرف ماوراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هى كل ما علاك فأظلك ، والماء يأتى من السحاب ، وكلنا نرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير الفطرى الذى يقول : غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال: تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذى يروى مابها من بذور . لكن ماوراء عملية الإنزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث فى الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنافوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار فى

الأنابيب ومرت الأنابيب فى أوساط باردة فتكثفت المياه ونزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث فى المطر ، وانظر كم يكلفنا كوب واحد من الماء المقطر الذى نشتريه من الصيدلية ؟ وقارن ذلك بالسماء التى تنزل بماء منهمر ، ولا ندرى كيف صُنع . ولذلك يقول الحق :

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه يقول هنا :

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

وحين يقول سبحانه «مشتبها وغير متشابه» نصدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه «الخوخ السلطانى» ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تنفلق لتخرج البذرة نظيفة ، وحبة أخرى نفلقها نحن فتجد البذرة فيها بعض لحم الفاكهة ونجد فيها أيضا بعضاً من الألياف . وهذه لها لون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف .

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريده الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجد الفصائل ، فهذا برتقال منه بسرّة ، ومنه برتقال بلدى . وبرتقال بدمّه ثم اليوسفى . ولذلك سنجد فى الجنة مايحدثنا عنه سبحانه فيقول :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التى قام بها العلماء المعمليون ـ جزاهم الله عنا خيراً ـ لـ «حبة العنب» وجدو أن القشرة التى تغلفها لها طبيعة «البارد» و«اليابس» ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة «حار رطب» ثم البذرة «بارد يابس» ، وهذه ثلاث طبائع فى الحبة الواحدة ، وهذا شىء عجيب التكوين . وكذلك «الأترجة» وهى فاكة كالنارنج تجد القشرة «حارة يابسة» ، واللحم فيها «بارد رطب» ، والسائل الذى فى اللحم «بارد يابس» والبذرة «حار يابس» ، طبائع أربعة فى الشىء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسالة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما فى داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلقيها ، والخوخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق . وتجد الشىء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب فى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتى بثمار مثلها فى الدنيا ؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثيل فى الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت فى الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن هاهى ذى تتشابه ، وطعومها مختلفة .. إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » الحق سبحانه وتعالى لايعطى الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ،ولكنه يغذى كل الملكات فى النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحسن ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله ! لتغذى عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيّوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم . وهذا دليل على أن خالقها قيّوم عليها . مادامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

«انظـروا إلى ثمره إذا أثمـر وينعـه»، و «ينعـه» أى وصلت إلى النضج وذلك إشاعـة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمـر لايعنى أننى أملكه ، فقـد أراه فى حقل جارى وأنظـر لـه وأتمتع بشكلـه . إذن فـالحق سبحـانـه وتعالى يـريد أن يشيع الانتفاع بنعـم الله حتى عند غير واجدهـا ، لأن أحداً لن يمنعنى من أن أنظـر ، فأنبسـط ، فمن نـاحيـة الكمال الإنسـانى هنـاك غـذاء لملكـات النفس ؛ لأن النفس ليست ملكـات جـوع وعطش فقط بل هى ملكات متعـددة ، وكل ملكة لها غـذاؤها . ولـذلك فقبل أن يقول لى : إن الخيل والبغال تحمل الأثقال .. قال سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

(سورة النحل)

إذن فهو يعطينى فائدة حمل الأثقال ؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذى لايملكها فهو يرى الحصان يسير بجمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بها لا يملك ، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »

أى يؤمنون بـأن الإله الذى آمنوا به يستحـق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُـؤْمَن به ، وكلما رأى الإنسـان خلقـاً جميـلاً قال : الله ، إذن أنـا إيمانى صحيح والآيات تؤكـد صدق إيمانى بالإله الـذى خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لى حـاجة عجيبة تزيـدنى إيمانـاً ، وعقلى الذى وهبـه الله لى هدانى إلى الإيمان بهذا الإله.

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء !! إلـه له كل هذه الصفات من أول فـالق الحب والنـوى ، وفـالق الإصبـاح ، وجعل الليل سكنـاً ، والشمس ، والقمر ، حسبانـاً وبحسبان ، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحـر ، وأنزل لنـا من السماء ماء ، وأخـرج لنـا النبات منـه خضر ، كل هـذه المسـائل كـان يجب أن تكـون صارفـة للنـاس إلى أن الله وحـده هـو الخالق المستحق للعبـادة ، ولا تتجه أبـداً بـالعبادة أو بـالإيمان بغيره ، لكن

هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أى استوجب علينا حمده إذ أنه هدانا إلى الإيمان، فنقول : الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ومادة الجن هى « الجيم » و« النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل فى هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لا نرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و« النون » تدل على اللف والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و« الجن » هو الخفى من كل شيء ، والجن - كما تعلمون - هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لا نعتقد أن خلق الله لحى كائن ، يجب أن يتمثل فى هذا القالب المادى، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها : كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لا تدرك ولا ترى ؛ لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك